تخطيط العبرية الحديثة

بقلم : عبد الكريم بوفرة

أستاذ العبرية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة محمد الأول ـ وجدة

نهدف من خلال هذا المقال إلى التعريف ببعض من عناصر التخطيط اللغوي في العبرية الحديثة. وقد ناقشنا فيما سبق نظرية التخطيط اللغوي وحاولنا تطبيقها في اللغتين العربية والعبرية الحديثتين. وكان اهتمامنا منصبا أكثر على الميدان المعجمي (1992، (أ) و 1992(ب))[1].

وحاولنا أيضا تحليل بعض القضايا اللغوية كالمسألة الذوقية والتصحيح اللغوي والتوحيد اللغوي على ضوء ما وصل إليه التخطيط اللغوي الحديث، (BOUFARRA : 1992 b)[2].

1 ـ تعتبر العبرية الحديثة نموذجا من نماذج التخطيط اللغوي الناجح في العقود الأخيرة من هذا القرن. والسبب يعود أساسا إلى الأبعاد المختلفة التي أخذتها وتأخذها العبرية داخل المجموعة اللغوية الناطقة بها، بل حتى خارجها.

فالعبرية لغة التوراة، وهي وسيلة للتواصل الثقافي : الفكري والحضاري عبر قرون متعددة في تاريخ الجماعة العبرية، ثم القبيلة اليهودية ثم الدولة الصهيونية. والعبرية هي أيضا تلك اللغة التي ساهم في إعادة استعمالها أفراد وجماعات، هيآت وجهات رسمية وغير رسمية. والعبرية هي أخيرا تلك اللغة التي شهدت صراعا حادا وعنيفا وصل إلى «المعركة بين اللغات»، إذ كانت العبرية في علاقات مباشرة (أو شبه مباشرة) مع لغات أخرى مثل الإيديش yiddish[3]، الألمانية، الإنجليزية، الفرنسية، هذا زيادة على العربية التي كانت تحظى بـرأي A. SHIVEIEL (1985)[4] بوضع خاص : ذلك أن ابن يهودا (1858-1922) كان يدعو إلى أن تأخذ العبرية كل ما تحتاجه من العربية من الناحية الصوتية والمورفولوجية والتركيبية والمعجمية (الدلالية). وكان يدعو إلى الاتجاه نفسه : E. Sappir (1869-1913) و J.G.KLausner.(1874-1958).

1-1 : إن الرأي الداعي إلى ربط نهضة العبرية الحديثة بشخص ابن يهودا[5] فيه كثير من الشطط. فمصير اللغات يقترن بمجهودات جماعية وليس فردية. وابن يهودا هو مؤسس كثير من الجمعيات اللغوية بمعية رفاقه سنوات : 1890/1903/1904/1906، وهو صاحب معجم «اللغة العبرية القديمة والحديثة» في ستة عشرْ (16) جزءا، وهو صاحب مذكرات كتبها سنة 1917 تفيد كثيرا من الناحية اللغوية التاريخية، بل من الناحية التاريخية الصرفة[6].

وبداية نهضة العبرية لم تكن مع استقرار ابن يهودا بفلسطين سنة 1881، بل مع اليهود الأوائل الذين كانوا يربطون بين استعمال اللغة وبين العودة

إلى التوراة. بمعنى أن العبرية كانت في نظر هؤلاء لغة دينية محضة، تستعمل في المناسبات والأعياد الدينية. أما ما عدا ذلك، فالتحدث بالعبرية يساوي «مخالفة لشريعة موسى» لأن «قدسية» اللغة لا تسمح بتداول شؤون الحياة اليومية العادية بها. ولكن ما هي العبرية السابقة على ابن يهودا ؟

يصعب علينا ـ لغياب الوثائق الكافية ـ وصف هذه اللغة بالتحديد، وكانت تعتمد (فيما يبدو) على النطق اليهودي المشرقي (السفارادي) رغم وجود أقلية يهودية اشكينازية. ونكاد لا نعرف شيئا عن نحو وتركيب ومفردات هذه العبرية. T. Parfitt(1984)[7].

يرتبط مفهوم الحداثة بمراحل العبرية المختلفة التي حددت شكل الاستعمال اللغوي. ولكن ينبغي اعتبار هذه المراحل على غرار سابقاتها مرحلة لغوية متميزة من الناحية التاريخية كما أشرنا إلى ذلك في مقال سابق (1992 أ).

ويمكن تقسيم اللغة العبرية الحديثة من حيث التخطيط اللغوي إلى ثلاث مراحل :

1 ـ مرحلة الإحياء 1890-1916.

2 ـ مرحلة التوحيد اللغوي Standardisation ونشر اللغة : 1916-1948.

3 ـ مرحلة تحديث المفردات : 1948، إلى الآن.

هذا التقسيم على رغم أهميته من الناحية المنهجية (M. Nahir: 1979)[8] وكذلك (M. Nahir: 1987)[9] فإنه لا يعني بالضرورة اعتبار الفواصل الزمنية المحددة أعلاه نقطة بداية ونهاية لكل مرحلة : لأن فترة الإحياء مثلا استمرت سنوات طويلة بعد 1916. وبالنظر إلى تلك المراحل يمكن أن نتحدث عن حداثة تهم المستوى الصوتي، التركيبي (المورفولوجي) وأخيرا المعجمي (الدلالي).

2 ـ تخطيط القانون /النظام :

هذا التخطيط كان يهم بالأساس المرحلة الأولى، وعلى ضوء نتائجه وانعكاساته تم الحسم (إلى حد كبير) في قضايا تتعلق بمتن اللغة.

هذا يعني ـ من الناحية النظرية على الأقل ـ أن تخطيط اللغة من حيث القانون (النظام) يؤثر كثيرا ـ سلبا أو إيجابا ـ على تخطيط اللغة من حيث المتن. ولكن لا يتعلق الأمر بمسألة جدلية تأخذ اتجاها أفقيا أحاديا ومحددا، بل ينبغي التمييز في تخطيط اللغة بين المستوى النظري العام والمستوى التطبيقي حيث تتحدد المشاكل والأهداف.

وهذه القضية تهم اللغات الإنسانية ولا تقتصر على العبرية أو العربية وحدهما.

1-2 : إن العبرية الحديثة (خصوصا عبرية عصر النهضة أي الهسكلاة 1750-1880) تختلف كثيرا عن عبرية التوراة، الشيء الذي يطرح مسألة التواصل (بجميع أشكاله) في إطار يصعب تحقيقه دون مجازفة. فهذه العبرية ترتبط بعلاقات خاصة مع العبرية القديمة (وبتعبير أدق مع العبريات القديمة)،لأن مفهوم الحداثة يقوم أساسا على فكرة الانتماء إلى موروث ديني وفكري قديم، يستمد مصدر وجوده من التوراة.

فكان لابد من اعتبار هذه العلاقة «عادية» بالنظر إلى تطور اللغة، وبالتالي يُفَسَّر اختلاف العبرية الحديثة عن سابقاتها انطلاقا من مبدأ «التطور اللغوي العام» الذي تعرفه اللغات الإنسانية.

وهكذا تجد «أخطاء» العبرية الحديثة مبررا لوجودها من خلال تفسيرات معينة تهدف جميعها إلى إعطاء «شرعية» معينة في استعمال هذه العبرية.

نخشى أن نبالغ إذا قلنا بمصداقية ظاهرة لغوية تاريخية في حالة العبرية أو نقصد بها ما يمكن تسميته «نحو الأخطاء» La grammaire des fautes. ويتم

الاعتراف بهذه العبرية التي أصبحت تسمى مع H.B.Rose'n (1955)[10] عبرية إسرائيلية. وتحمل التسمية دلالات سياسية وايديولوجية أكثر منها لغوية. ولكن نجد من يطلق صفة الحداثة دون تسمية معينة سواء قبل Rose'n أو بعده. نذكر مثلا : Aescóly (1937)[11] و M. Masson (1976)و (1986)[12].

2-2 : والحداثة (من المنظور اللساني) تحمل معاني متعددة، فهي تعني تكثيف الاستعمال اللغوي في الحياة اليومية وترشيد التدخل اللغوي حتى تظل العبرية أداة «طبيعية» للتواصل. بل حتى تصبح «اللغة الأم» Langue-mère بالنسبة لمجموعة من المتكلمين، وتساهم في إنشاء مجموعة لغوية أحادية monolingue.

وترتبط الحداثة بتوحيد قانون خاص بتنمية المعجم والتراكيب وبالعمل على نشر اللغة والدعوة إلى ضرورة الاهتمام بها.

هذه الأهداف ـ وغيرها كثير ـ ليست سهلة التحقيق، نظرا لطبيعة العبرية كلغة من جهة، ولطبيعة اليهود كمجموعة بشرية لغوية من جهة ثانية.

ذلك أن التكلم بالعبرية كان يرمز كثيرا إلى فترة من فترات الانحطاط الفكري والحضاري بالنسبة للغة وللمتكلمين بها على حد سواء. كانت العبرية محصورة الاستعمال في المناسبات والأعياد الدينية أو كذلك في المناقشات التوراتية والتلمودية. كانت العبرية لغة الكتاب المقدس وتفاسيره. كانت أقرب لأن تصبح لاتينية ثانية لولا يقظة الحس الوطني.

أما اليهود فكانوا ينظرون نظرة «تقديس» إلى هذه اللغة، ترتبط فيها العاطفة بالحنين الديني، خصوصا عند المتدينين. أما «العلمانيون» فكانوا يحتقرونها حتى أن Herzl كان يستغرب كثيرا أن يذهب يهودي إلى محطة قطار ويطلب تذكرة سفر بالعبرية ؟!.

والشعار القديم المعروف C'est de l'hébreu pour moi ! يدخل في هذا الإطار.

كان للهجرات اليهودية إلى فلسطين دور حاسم في مستقبل العبرية من حيث الاستعمال (أو إعادة الاستعمال بشكل أصح) والانتشار. غير أن حماس المهاجرين الأوائل لم يصمد أمام بعض «المشكلات اللغوية» المرتبطة بالعادات الصوتية لدى «الأشكينازيم» و«السفارديم». فاليهودي البولوني أو الروسي لم يكن ينطق العبرية مثلما يفعل اليهودي اليمني أو العراقي مثلا. فكان لابد من توحيد استعمال صوتي معين يراعي النطق الأقرب إلى العبرية ـ الأصل.

ولكن هناك من اليهود من رفض في البداية التكلم بالعبرية، وكانت كثير من الجمعيات اليهودية تدير مؤسسات تعليمية في حواضر وبوادي فلسطين، وتستعمل إما الألمانية أو الانجليزية (وحتى الفرنسية وإن كان ذلك بشكل ضئيل جدا).

وكانت الإيديش Yiddish ذائعة الاستعمال بين اليهود «الأشكينازيم» بل كانت لغة الكتابة والترجمات الأدبية، مما جعل دورها «خطيرا» على مستقبل العبرية. ولعل استعمال العبرية يعود لكونها أساسا لغة الموروث التراثي. وأما الإيديش فكانت مرتبطة بفترات تاريخ مظلم في العقلية الفردية والجماعية لدى اليهود وهي فترة «الكيطو» Ghetto[13].

باختصار عرفت العبرية «معركة لغات» عنيفة ساعدتها في الأخير على تحديد شروط الاستعمال اللغوي مع مراعاة طبيعة المجموعة العبرية كمجموعة لغوية ذات عادات صوتية مختلفة.

3-2 : لم تغب هذه الأمور عن ابن يهودا ورفاقه، لأنه كان يلمسها داخل المجموعة اليهودية الوافدة إلى فلسطين. بل يمكن اعتبار هذه المشاكل

اللغوية من بين العوامل التي حسمت بشكل شبه نهائي مستقبل العبرية. ذلك أن ابن يهودا كان واحداً ضمن جماعة تنادي بضرورة التكلم بالعبرية لأنها تعبر عن الحسّ الوطني والانتماء العرقي (هذه الفكرة من الناحية اللسانية لا تعبر بالضرورة عن عنصرية معينة).

فإذا كان يعتبر روسيًّا كل فرد تكلم بالروسية وكذا الأمر بالنسبة للبولوني ... فإن ابن يهودا ـ تبعا للفكر السائد آنذاك ـ كان يربط بين اليهودي وبين العبرية مع تأكيد ارتباط جغرافي معين بأرض فلسطين.

نجد هنا ثنائية من الثنائيات المتعلقة بأحد أهداف التخطيط اللغوي التي طرحناها في مقال سابق (1992أ) ونقصد بها : الشخصية البيئية.

فالأمة تقوم حسب رأيه على الجمع بين عنصرين أساسيين وهما اللغة والأرض أي أن انتشار العبرية في فلسطين هو السبيل لبعث الروح الوطنية اليهودية.

هذه الأفكار «اللغوية» وجدت من يدافع عنها في إطار سياسي، ونقصد به مؤتمر بال Bâle الصهيوني الأول (29-31 غشت 1897). وهكذا يمكن القول بوجود صهيونية لغوية عند ابن يهودا مثلما هناك صهيونية سياسية تزعمها Herzl. ومفهوم «الصهيونية» هنا يعبر عن التصور اليهودي العام لهذه الحركة العنصرية ولنشاطاتها المتعددة.

يظهر إذن أن تخطيط القانون لم يكن أمرا سهلاً لتفاعل عناصر لغوية (وكذلك خارجة عن اللغة) والخطر الذي شكلته (سلبا أو إيجابا) على مستقبل العبرية، وبتعبير أصح إعادة استعمال العبرية...

3 ـ تخطيط المتن :

بعد إحياء العبرية بين يهود فلسطين، وبعد الاعتراف بها لغة رسمية إلى جانب العربية والإنجليزية من طرف الاستعمار البريطاني (1922) وبعد إنشاء أول جامعة عبرية بالقدس (1925)، أصبحت العبرية لغة الكتابة الرسمية والخاصة، الفردية والجماعية. فقد دخلت مجال الحياة اليومية، فكان لابد من حل كثير من المشاكل حتى تظل لغة «طبيعية» و«عادية» (غير اصطناعية Non artificielle).

3-1 : تخطيط النطق : (إصلاح النطق) :

لعل أهم ما يميز العبرية اختلاف العادات الصوتية بين يهود البلدان الأوروبية وبين يهود البلدان العربية (انظر : 2-2).

هذا الاختلاف ازداد حدة مع توالي الهجرات إلى فلسطين، فكان لابد من اعتماد النطق الأقرب إلى العبرية ـ الأصل.

وهكذا ظهر منذ سنة 1907 ما يسمى بإصلاح النطق. وقبل هذا التاريخ عملت أول جمعية لغوية أسسها ابن يهودا وهي جمعية «الدفاع عن اللغة العبرية» (1890) على تحقيق هدفين اثنين :

ـ تكثيف استعمال العبرية في الحياة اليومية.

ـ المحافظة على الطابع المشرقي السامي للعبرية أي اعتماد النظام الصوتي السامي كما هو واضح في العربية

وقد عملت أكاديمية اللغة العبرية منذ إنشائها (27 غشت 1953) في نفس الاتجاه.

وقد عمد اللغويون على تصحيح النطق بواسطة ملصقات توضع في الساحات العمومية وعن طريق مناشير صغيرة بعنوان «لاتقل وقل».

هذا يعني أن «المسألة الذوقية» في العبرية تراعي المستوى المنطوق (ربما قبل المستوى الكتابي).

3-2 : غير أن العبرية في بداياتها كانت تحتاج إلى كثير من المفردات، لأن معجمها المحدود لا يستطيع التعبير عن متطلبات الحياة اليومية. فبرزت الحاجة إذن إلى الدخيل. ولكن على أي أساس يتم اللجوء إليه ؟ بعبارة أخرى طرح السؤال التالي :

ماهي شروط استعمال الدخيل وما هي حدوده ؟ وما مكانة العربية من الناحية المعجمية ؟

لا يتعلق الأمر بأسئلة مباشرة تحتاج إلى أجوبة مبسطة. كان على العبرية أن تربط مسألة الدخيل بتصور عام يراعي طبيعة اللغة ذاتها وطبيعة تعامل المتكلمين بها مع اللغات الأخرى.

لذا كان لابد من تكثيف استعمال العبرية واللجوء إلى الكلمة الأجنبية تحت شروط معينة، مع اتباع نظام بيداغوجي محدد يراعي تدريس وتعليم وشرح العبرية بالعبرية.

ومن جانب آخر لم يكن السؤال يتعلق بقبول أو رفض الدخيل (لأن هذا السؤال مرفوض من الناحية اللسانية) بل بشروط وجوده. اعتمادا على تصور خاص يقوم على اعتبار الكلمة الدخيلة فضاءاً (جغرافيا) لا يمكنها أن تُدمج مع الكلمات العبرية الأصيلة، لسبب بسيط هو مصدرها الخارجي.

ويتجلى هذا التصور بشكل واضح في المجال المورفو ـ فونولوجي والتركيبي. ولنا عودة إلى هذه المسألة في مقال لاحق لتداخل التحليل اللغوي بما هو خارج عن اللغة. ذلك أن الدخيل في العبرية مثلا يتطلب دراسة الكلمة من حيث توزيعها الفونيمي وتقطيعها وتعيين موقع النبرة وربط هذه العملية بتصور إيديولوجي يفسر كثيرا من الظواهر اللغوية الصرفة. ولا عيب في دراسات من هذا النوع ما دامت تفيد البحث اللساني.

خلاصة :

حاولنا التركيز في هذا المقال على طبيعة التخطيط اللغوي في العبرية الحديثة، خصوصا من ناحية النظام أو القانون. وإذا كانت دراستنا لجانب المتن وجيزة وعامة فلاعتقادنا بأهمية الجانب الأول ودوره في تحديد الجانب الثاني.

وقد عرضنا إجمالا لبعض القضايا المرتبطة بالتخطيط اللغوي، مع تجنب التفصيل في قضايا لغوية تتعلق بالعربية والعبرية (من باب المقارنة).

ونتمنى أن يتوفر لنا مجال الدراسة التحليلية لكل ما عرضناه سابقا قريبا إن شاء الله.

الهوامش

(1) * عبد الكريم بوفرة : 1992 أ : «التخطيط اللغوي بين العربية والعبرية» العلم الثقافي. العدد : 771 بتاريخ 1992/04/25.

* عبد الكريم بوفرة : 1992 . ب. : «تخطيط المعجم في العربية والعبرية». العلم الثقافي. العدد : 781 بتاريخ 1992/07/04.

(2) BOUFARRA Abdelkrim : 1992 b «**L'aménagement de l'arabe et de l'hébreu modernes**» (à paraître) in : J. Maurais et P. Martel (eds). Hommage à J.C. Corbeil Quèbec.

(3) الإيديش لغة يهودية تمتزج فيها عناصر من الألمانية والعبرية. Cf. Baumgarten «Le Yaddish». J : 1990. in : Que Sais-je. P.U.F. Paris.

(4) «Languages in Contact» in : J.S.S. Journal of Semitic Studies. 30/1 P. 97.

(5) Avineri, S.: 1981 : «**The Making of Modern Lionism**» .

(6) عنوان المذكرات : ها حَلُوم تِشِيڤرو (الحلم وتحقيقه ـ أو ـ تحقيق الحلم)، ونعمل حاليا على ترجمة هذه المذكرات إلى العربية.

(7) T. Witold : 1980 «Quelques Remarques sur l'hébreu contemporain»

وانظر خصوصا :

T. Parfitt 1984 in : J. S.S. 29/1 p. 260

(8) in : Word : 30 p. 105.

(9) in : J. Maurais (éd). p. 259.

(10) «ها عڤريب شلنو» (بالعبرية) أي «عبريتنا» ص 107 و134.

(11) «L'hébreu moderne» p. 24.

(12) «Les mots nouveaux en hébreu moderne» وأيضا :«Langue et idéologie».

(13) كان لرواد النهضة (الهسكلاة بالعبرية) 1750-1880 موقف سلبي جدا من الايديش لمجموعة من الاعتبارات نربطها شخصيا بتصور فلسفي وانثروبولوجي عام نجده في الفكر الديني اليهودي. والحقيقة أن هذه الملاحظة وحدها تستحق مقالا مفصلا، وهو ما نعد القيام به مستقبلا.